موقف اليهود

من الإسلام والمسلمين

ونبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم في زمن النبوة الشريفة

للأستاذ محمد عزة دروزة

يحتوي القرآن الكريم كثيرا من الفصول التي تساعد على رسم صورة واضحة ومفصلة لليهود في زمن النبي صلي الله عليه وسلم وبيئته سواء أكان في أحوالهم أم اخلاقهم أم مواقفهم من النبي عليه السلام والاسلام والمسلمين بحيث يغني ما احتواه الباحث عن التماس أي مصدر آخر عن ذلك لا يصل الى درجته الصادقة المقدسة .

وجل هذه الفصول في السور المدنية ، اما ماورد في السور المكية فهو في صدد قصصهم السابقة للبعثة .

يستفاد ويستلهم مما ورد عنهم في السور المدنية مما يتصل بأحوالهم ان اليهود الذين كانوا موجودين في الحجاز في زمن النبي صلى الله عليه وسلم هم من بني اسرائيل وليسوا كما وهم البعض قبائل عربية متهودة ، لأن القرآن خاطبهم بصفة بني اسرائيل وربط بين حاضرهم وبين آبائهم من لدن موسى عليه السلام(1) .

وفي آيات سورة الانعام ١٥٦ — ١٥٧ ما يفيد صراحة أن الكتب التي كانت بين أيدي طائفتي الكتابيين أي اليهود والنصارى كانت بغير العربية وهذا يعني أن أصحابها ليسوا عربا . وهناك حديث يرويه الترمذي عن زيد بن ثابت ذو مغزى مهم ومؤيد جاء فيه : قال زيد : (أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم كتاب يهود قال اني ما آمن والله يهود على كتاب قال : فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له ، فلما تعلمته كان اذا كتب الى يهود كتبت اليهم واذا كتبوا

---

(1) انظر آيات سورة البقرة ٤٠ — ١٠٣ وآل عمران ٧٩ والانعام ١٥٦ و ١٥٧ ، والشعراء ١٩٧ — ١٩٩ وتنبه على أننا اكتفينا بالاشارة الى ارقام وسور الآيات هنا وفي سائر مواضع البحث لان ايراد النصوص سيضخم حجم البحث في أمر سهل التناول على القارىء حيث يكون معه المصحف فيقرأ الآيات المشار اليها منه .

اليه قرأت له كتابهم(٢) وقد يكون مما أوجد ذلك الوهم في أذهان بعضهم الاسماء العربية التي تسمى بها قبائل اليهود في المدينة مثل بني النضير وبني قريظة والاسماء العربية التي تسمى بها أشخاص من اليهود والشعر البليغ الذي ينسب الى بعض شعراء من يهود المدينة . وليس هذا سندا. فطول الزمن الذي عاشه بنواسرائيل في بيئة الحجاز العربية هو الذي أدى الى ذلك . وفي كتب السيرة اسماء عربية ليهود ومعها أسماء عربية لآبائهم وأجدادهم مما يزيل ذلك الوهم مثل عبد الله (بن صوريا) ومثله (بن شعيا) ورفاعة بن يزيد بن (التابوة) ونعمان (بن أضا) ... الخ ، بل وإنا لنذهب أبعد من هذا فنقول انه لم يكن في سائر جزيرة العرب وخاصة في اليمن قبائل عربية متهودة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . واذا كانت الروايات القديمة تذكر أن بعض أحبار يهود الحجاز نشروا اليهودية في قبائل اليمن العربية فان هذه الروايات لا تتضمن أي اشارة الى وجود يهود في اليمن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كما أنها لم تذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجلى يهودا عن اليمن حينما أجلى نصارى نجران من اليمن وبقية اليهود في الحجاز تنفيذا لوصية النبي صلى الله عليه وسلم بأن لا يبقى في جزيرة العرب دينان . ولقد روي عن أبي عبيدة بن الجراح قال : (كان آخر كلام قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وصيته باخراج يهود الحجاز ونصارى نجران اليمن من جزيرة العرب) ونص الحديث ذاته يدل على انه لم يكن في اليمن يهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم أو على الاقل كتلة يهودية بينما كان في الحجاز كتلة يهودية . وهذا يسوغ القول ان الكتل اليهودية التي كانت الى عهد قريب في اليمن هي طارئة بعد الاسلام حينما تشتت شمل اليهود ثانية بعد سقوط حكم العرب عن الاندلس . وما تقدم لا يمنع احتمال أن يكون بعض العرب قد تهودوا ولا احتمال أن يكون قام بين اليهود والعرب مصاهرات .

كذلك ما يستفاد ويستلهم ماورد عنهم في السور المدنية ومن الاحاديث والروايات المعتبرة الموضحة(٣) انهم جاؤوا الى الحجاز من أمد بعيد . وقد استقر منهم ثلاث كتل كبيرة في يثرب وارباضها(٤) ، ومنهم من كان يشتغل بالتجارة والصناعة ومنهم من كان يشتغل بالزراعة وكان لهم المزارع والكروم ، وكانوا يعيشون في قرى وأحياء خاصة بهم محصنة بالقلاع والحصون والاسوار ، وكان منهم جاليات تعيش في قرى قريبة الى

---

(٢) في روايات السيرة التي يرويها ابن هشام وابن سعد روايات عديدة تؤيد أن اليهود كانوا يتخاطبون فيما بينهم بلغتهم أيضا وان من العرب من تعلمها منهم وكان يتخاطب معهم بها .

(٣) انظر الحديث وحديثين آخرين من بابه في مجمع الزوائد ـ ج ٥ ص ٣٢٥

(٤) هي بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة على ما عرف معرفة يقينية بالتواتر .

المدينة أو بعيدة عنها في طريق الشام محصنة هي الاخرى بالقلاع والحصون والاسوار وكانوا يشتغلون بالزراعة(١) ولم يكن منهم في مكة إلا أفراد . وكان ممن هم في المدينة وما جاورها من يتردد على مكة لاغراض تجارية وغير تجارية . وانهم تعلموا اللغة العربية واشتركوا في حياة العرب وتقليدهم وصار لهم فيهم أنصار وحلفاء ومركز قوي . وانهم نشروا عن أنفسهم علما واسعا في الاديان والشرائع وأخبار الامم وسنن الكون والدين السماوي الذي يدينون به والكتاب السماوي الذي فيه شرائعهم وانهم كانوا يزهون على العرب بذلك ويستفتحون عليهم بل ويدلسون في كل ذلك عليهم . ويظهروا غرورا وخيلاء وتبجحا بما عندهم من العلم وما في جعبتهم من معارف ولو كان فيها تزييف أو تدليس . ويزعمون أنهم أولياء الله وأحباؤه وأصحاب الحظوة لديه . وان ذلك قد أثر على العرب تاثيرا غير يسير فكان لهم بسببه مكانة دينية ممتازة صاروا بها مرجعا لهم في كثير من مشاكلهم ومسائلهم ومعارفهم بل صاروا لهم مرشدين وقضاة . وكان لهم كيان طائفي ديني ولهم معابدهم ومدارسهم وأحبارهم وربانيوهم . وكان لهم أثر كبير في قومهم كما كانوا قضاتهم . وكان منهم من يتخذ منصبه ونفوذه وسيلة الى ابتزاز المال بالباطل، وكانوا يتعاطون السحر والشعوذة ، كما كانوا يشتغلون بالربا أيضا ، وان الذين كانوا في المدينة منهم وهم الاكثر والاشد والابرز في كل ما تقدم انهم لم يكونوا متحدين في كيان واحد أو موقف سياسي وعسكري واحد . بل كانوا متنازعين متحاربين بدليل انهم كانوا متوزعين في التحالف مع قبيلتي الأوس والخزرج اللتين كانتا بدورهما متنازعتين متحاربتين فكان كل فريق منهم يحارب خصمه مع الفريق المتحالف معه(٢) .

ومما يستفاد ويستلهم مما ورد

---

(١) من القرى القريبة الى المدينة خيبر ومقنا ووادي القرى ثم بعدها تيماء ثم بعدها قرى جنيبة وبني فاديا وبني العريض على ما ذكرته الروايات المتواترة . والراجح أن هذه الموجة من مهاجرة الاسرائيليين وقعت عقب تخريب الرومان للقدس وتشتيت شمل اليهود منها ومن معظم انحاء فلسطين في آخر القرن الاول للميلاد المسيحي . وقد اتجهت نحو الجنوب حيث يسمى مشارق الشام واخذت تقيم في واحاتها واحدة بعد أخرى حتى وصل آخرها وأكثرها الى يثرب .

(٢) كل ماتقدم مستفاد ومستلهم من آيات البقرة ٤٠ ـ ١٢٥ وآل عمران ٧٨ ـ ٧٩ و ١١٨ ـ ١٨٤ و ١٨٧ ـ ١٨٨ والنساء ٤٩ و ٥٠ و ٦٠ و ١٦١ والمائدة ١٨ و ٤٤ والتوبة ٢٦ و ٢٧ و ٣١ و ٣٤ والفتح ٢٠ و ٢١ والحشر ٢ و ٦ و ٧ و ١١ و ١٤ ومن أجزاء سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد .

عنهم في الآيات المدنية مما يتصل بأخلاقهم « كتمهم الحق والباس الحق بالباطل » والمكابرة في الحق، وتفضيل منافع الدنيا عليه ، وأمرهم بالبر مع بعدهم عنه . وخداع الناس وتضليلهم لهم وتدليسهم عليهم ، وتواصيهم فيما بينهم بعدم التضامن والتواثق مع الغير وأن يكونوا منه في موقف خداع ونفاق ، وأن لا يفيدوا أحدا بمعارف وحجج . والكذب على الله والتلبيس على الناس في مسائل الدين والتبجح بالحظوة عند الله ، والغدر والخيانة ونقض العهد ، وتمني الضرر والكفر والشر والضلال للغير ، وعدم الالتزام بأي مسؤولية تجاهه واستحلالهم كل ما يمكنهم أن يأخذوه منه بأي وسيلة كانت واثارة الفتنة والفساد بين الناس ، وعدم مبادلتهم المودة وحسن التعامل والتعايش بالنسبة للغير مهما اظهر لهم الغير ذلك . والاستياء والنقمة مما يناله الغير من خير ونفع والفرح والشماتة بما ينال الغير من مصائب وشدائد . وشدة الشح بما في أيديهم . وسوء الادب مع الله ومع الناس . وعدم التورع من الانحراف عن التوحيد والارتكاس في الوثنية والثناء عليها والتآمر مع أهلها على الموحدين . وتحريف كلام الله وشرائعه ووصاياه واهمالها والاحتيال عليها . وقسوة القلب والاندفاع في الآثام وأكل السحت وعدم التناهي عن المنكر واستغراقهم في الدنيا مهما كان في ذلك مخالفة للشريعة والتعجيز والجدال واللجاج واثارة الشكوك والبلبلة في الناس(١) .

وقد جعلتهم هذه الاخلاق يستحقون ما احتوته آيات عديدة من تسجيل لعنة الله وغضبه عليهم وضربه الذلة والمسكنة لهم وتأذنه بأن يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب الى يوم القيامة ويكتب عليهم الشتات في الارض(٢) .

ومن العجيب المعجز أن المرء ليراهم اليوم في أخلاقهم – على اختلاف منازلهم وبيئاتهم – صورة طبق الاصل لما وصفهم القرآن به من صفات وأخلاق ، لم تزدهم الايام فيها إلا

(١) انظر آيات البقرة ٤٠ – ٤٤ و ٥٩ و ٧٥ – ٨٠ و ٨٣ و ٩٣ و ١٠٠ و ١٣٩ و ١٤٠ وآل عمران ١٩ و ٢٣ و ٢٤ و ٦٥ و ٦٦ و ٧٢ و ٧٣ و ٧٥ و ٩٩ – ١٠٣ و ١١٨ – ١٢٠ و ١٨٠ – ١٨٤ والنساء ٤٤ – ٥٥ و ١٥٥ والمائدة ١٣ و ٤١ و ٦٢ و ٦٣ و ٦٤ و ٧٨ – ٨٠ و ٨٣ و ٨٧ و ٩٣ والاعراف ١٦٩ والانفال ٥٥ – ٨٥ والجمعة ٥ – ٨

(٢) انظر آيات سورة البقرة ٦١ و ٨٩ – ٩١ وآل عمران ١١٢ والنساء ٥٢ والاعراف ١٦٣ – ١٦٨ .

رسوخا ، مما هو مصداق لما قرره القرآن من الجبلة الراسخة المتوارثة من الآباء للابناء ، ومما لمسها فيهم البشر جميعا في كل زمان ومكان . والذين لم يكونوا دما وعرقا من بني اسرائيل ، قد اكتسبوا تلك الجبلة بالمعايشة والممارسة مع الذين هم منهم دما وعرقا ، فلا تراهم إلا والعيون مزوّرة منهم ، والسخط قائم عليهم ، والنفوس متبرمة بهم ، والناس مستثقلون ظلهم ، والحذر رائدهم منهم ، وشرهم ومكرهم بالغا الاثر فيهم ، والجميع راغب في التخلص منهم بأي وسيلة . وكفى باجماع البشر على اختلاف الزمان والمكان والجنس قوة ودليلا على تأصل تلك الجبلة التي يصدرون عنها في أعمالهم وتصرفاتهم وعلى أن البشر ليسوا هم المتحاملين عليهم وانما ذلك بسبب اخلاقهم وسلوكهم معهم على مختلف الصور والاشكال والاساليب والمواقف ولقد كان موقفهم في مكة من الدعوة الاسلامية ورسولها موقف المصدق المستجيب الفرح في حين انهم وقفوا منها في المدينة موقف الجاحد الصادّ . وهذا الفرق يعود ـ على ما هو المتبادر ـ لحالتيهم المختلفتين في المدينتين . حيث لم يكن لهم في مكة مركز يخشون عليه ، وكتلة كبيرة يتعصبون معها ، في حين كان لهم هذا وذاك في المدينة . وهذا ما يفسر الفرق بين الاسلوب المكي والاسلوب المدني في صددهم ، حيث كان الاسلوب الاول خاليا من العنف ، مكتفيا بسرد قصص الآباء السابقين واخلاقهم ، مع آيات كثيرة ، فيها تنويه بموقف أهل العلم وأهل الكتاب الفرح المستبشر بالقرآن ، ورسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، المستجيب لهما ، كأن الذين في مكة منهم ، من جملة من قصد به فيها (١).

وحينما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة ، واستقر فيها ، وكتب عهدا رتب فيه أمور أهلها في نصابها الحق ، كصاحب السلطان فيها ، امنهم فيه على حريتهم الدينية ، وطقوسهم ، ومعابدهم ، وأموالهم ، وأقرهم على محالفاتهم مع بطون الاوس والخزرج ، وأوجب لهم النصرة والحماية على أن لا يغدروا ، ولا يعينوا عدوا ، ولا يمدوا يدا بأذى . وتوقع منهم مع ذلك ، على ماتلهمه الآيات والروايات الموضحة

---

(١) أنظر بخاصة : آيات سورة الانعام ٢٠ و ٨٤ ـ ٩٠ ـ ١١٤ والاعراف ١٧٧ والرعد ٣٦ و ٤٣ ويونس ٩٤ والاسراء ١٠٧ ـ ١٠٩ والشعراء ١٠٩ والقصص ٥٢ ـ ٥٥ والعنكبوت ٤٦ ـ ٤٨ والسجدة ٢٣ ـ ٢٥ والشورى ١٣ ـ ١٦ والدخان ٣٠ و ٣١ والجاثية ١٦ و ١٧ والاحقاف ١٠ وقارن بين أسلوب البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والحشر والجمعة والصف فيهم وبين قصص بني اسرائيل في سور الاعراف ويونس وهود وابراهيم والاسراء وطه والشعراء .

لها ، أن يكون موقفهم منه ومن رسالته نفس الموقف الذي وقفه الكتابيون ، والافراد الذين التقى بهم منهم في مكة ، فيكونوا أول من يؤمن به ويصدقه ، ويلتف حوله ، ويكون له منهم سند وعضد ، لما كان بين دعوته وأسس دينهم من وحدة ، ولما احتواه القرآن من تقريرات متنوعة وكثيرة ، بأنه مصدق لما بين يديه من كتب الله ومؤمن بمن قبله من رسل الله الذين منهم رسلهم وانبياؤهم ، وبأنه يأمر المسلمين بذلك ، وبأنه محتو حل المشاكل والخلافات التي كان يتعثر بها الكتابيون ، ورافع عنهم الإصر والاغلال التي كانت تثقلهم ثم من استشهاده بالكتابيين وأهل العلم على صحة رسالته استشهادا ينطوي على الثقة والتنويه بهم .

ولما كان من حسن استجابة الكتابيين ، وفيهم اسرائيليون ، الى دعوته ، وايمانهم برسالته في مكة ، ولا سيما أنهم كانوا في المدينة يبشرون بمبعثه ، ويستفتحون به على العرب ، ويقولون لهم : إنهم سيكونون وإياه حزبا واحدا على ما تلهمه آية سورة البقرة هذه **(ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) ٨٩** ومما روي في صددها من روايات فيكون في تحقيق ذلك المتوقع تيسير لانتشار دعوته ، وحسن استقبالها من سائر العرب الذين كانوا ينظرون اليهم نظرة الواثق بعقلهم وبصيرتهم الدينية ، فكان منهم ذلك الموقف المخيب لهذا الامل ، حيث إنهم لم يلبثوا أن تطيروا من هجرته الى المدينة واستقراره فيها ، وأخذوا ينظرون بعين التوجس الى احتمال رسوخ قدمه ، وانتشار دعوته ، واجتماع شمل الأوس والخزرج تحت لوائه ، بعد ذلك العداء الدموي الطويل الذين كانوا من دون ريب يستغلونه في تقوية مركزهم ، وغدوه قائد العرب ومرشدهم وقاضيهم دونهم ، ومغنيهم عنهم ، وخشوا على المركز الدنيوي الذي كان لهم بين العرب ، والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها ، ويجنون منها اعظم الثمرات المادية .

ولقد كانوا — على ماتلهمه الآيات والروايات الموضحة لها — يظنون أن النبي صلى الله عليه وسلم سيجعلهم خارج نطاق دعوته معتبرين انفسهم أهدى من أن تشملهم ، وأمنع من أن يأمل دخولهم في دينه وانضواءهم الى رايته ، بل لقد كانوا يرون أن من حقهم أن ينتظروا انضمامه لهم(١) ،

---

(١) اقرأ آيات سورة البقرة ٧٦ و ٩١ و ١١١ و ١١٩ وهذه الآيات وان كانت تجمع اليهود والنصارى فانها من سلسلة في صدد مواقف اليهود بحيث يصبح القول بان ذكر النصارى اسلوبي ومن قبيل التعميم .

ولا سيما حينما رأوه يترك استقبال الكعبة ، ويصلي الى قبلتهم ، ويعلن ايمانه بأنبيائهم وكتبهم ، ويجعل ذلك من أركان دعوته ودينه ، ويثني على أسلافهم ، وينوه بما كان من تفضيل الله إياهم وهدايته لهم ، ويقرأ أمر الله له بأن يقتدي بهداهم(١)، فخاب ظنهم ، ورأوه يدعوهم في جملة الناس ، بل يختصهم بلسان القرآن أحيانا بالدعوة ، ويندد بهم لعدم مسارعتهم الى استجابتها ، ولموقفهم منها موقف الكفر والتعطيل(٢). فكان هذا على ما هو المتبادر باعثا على تنكرهم للدعوة وحقدهم على صاحبها منذ الخطوات الاولى من العهد المدني . ثم رأوا الناس فعلا اخذوا ينصرفون عنهم ، ويتخذون النبي صلى الله عليه وسلم مرجعهم الاعلى ، ومرشدهم الاعظم ، وقائدهم المطاع وقاضيهم النافذ القضاء، فاستشعروا بالخطر العظيم يحدق بمركزهم الذي يتمتعون به بين العرب ، وامتيازاتهم التي كانوا يستغلون العرب بها ، اذا تم النجاح والاستقرار للنبي ودعوته . وأرادوا أن يتمسكوا بكيانهم الخاص، ولا يندمجوا فيها إلا القليل الذين استطاعوا أن يتغلبوا على اعتباراتهم الخاصة وأحقادهم النفسية ، فكان هذا عاملا على اندفاعهم في خطة التنكر والحقد والتآمر والصد والتعطيل والعداء الى نهايتها ، فكانوا بذلك اعداء المسلمين ، بل من أشد أعدائهم كما سجل القرآن(٣) . باستثناء أفراد منهم استطاعوا أن ينفلتوا من الجبلة الاخلاقية الفاسدة ، والانانية الحاقدة، والمآرب الدنيوية فيروا أعلام النبوة ونورها الساطع ، فيؤمنوا بالنبي والقرآن على ما حكته بعض الآيات المدنية(٤) .

* * *

---

(١) انظر : آيات آل عمران ١١٣ ـ ١١٥ و ١٩٩ والنساء ١٦٠ ـ ١٦٢

(٢) انظر : سلسلات آيات البقرة وآل عمران والنساء والمائدة التي مرت ارقامها

(٣) انظر : آيات سورة آل عمران ١١٨ ـ ١٢٠ والنساء ٤٥ ـ ٤٦ والمائدة ٨٢

(٤) انظر : آيات آل عمران ١١٣ ـ ١١٥ و ١٩٩ والنساء ١٦٠ ـ ١٦٢